حنان

بقلم السيدة صوفى عبدالله

انحسر الموج عن الشاطىء ، واندفعت الطفلة الصغيرة الجميلة بكل حيوية الطفولة البريئة ، اندفعت تجرى وهى تتعثر فى خطاها تسبقها صرخاتها المرحة ويداها ممدودتان كأنما تستعطف الموج أن يعوده وفزعت الام الشابة فأسرعت تصيح خلفها قبل أن يدركها المد مرة ثانية :

ـ حنان ... ارجعى ..

ورفعت سيدة نصف عينيها عن شغل التطريز الذى فى يدها ، وكانت تجلس أمام كابينها على بعد خطوات قليلة . رفعت عينيها تتطلع الى الام الشابة والطفلة السعيدة المرحة . وانطلقت من صدرها آهة جريحة وتمتمت تحدث نفسها :

ـ حنان ... ياله من اسم !

وغامت عيناها خلف قطرات من الدموع ترقرقت ثم انحدرت فوق خديها الغائرين ، فرفعت يدها تتحسس وجهها وتزيح خصلة من شعرها تهدلت على جبينها ثم عادت تحدث نفسها من خلال دموعها .

ـ ترى كيف أصبحت الآن ابنتى أنا ... حنان ؟!

وتدفقت عذوبة الذكريات فانتشلتها من حاضرها عبر ستة عشر عاما ـ وعلى شاطىء آخر ، شاطىء شعبى ، كانت تجلس وبجانبها مدحت وأمامهما طفلتهما حنان فى سلة كبيرة مما تحمل فيها الاطفال الصغار ... كانت فى شهرها الثالث ، جميلة ، يانعة ، كالزهرة المتفتحة ... ولكن شيئا فيها لم يكن طبيعيا : صمتها المطبق وعدم تمييزها لمن حولها من الاشخاص والاشياء ! .. لم تكن تعرف أمها . وهى أول من يتعرف عليه الطفل ! .. ولا أباها ! .. كل الاشخاص حولها سواء ! ..

كانت حنان طفلتها الأولى بعد زواج دام خمس سنوات . زواج أقل مايوصف به أنه حلم كل عذراء . فمدحت زوج توافرت فيه كل مميزات فارس الاحلام . رشيق أنيق عطوف حبيب الى النفس مريح للأعصاب . وهى تعبده من دون الله . وترى فيه زخر أيامها وجنة حياتها .. وحنان . طفلتها المعبودة . لكم هفت نفسها الى الاطفال مدى الخمس سنوات . ولكن مدحت لم يكن يريد رغم حبه الشديد لهم ... لم يكن يريد أن يكبل نفسه بطفل وهو يعيد حياة

الانطلاق. حياة التحرر من كل الالتزامات التى تعـــوقه عن الاستمتاع بمبـاهج الحرية - والاطفال قيد ، ولو كانوا قيدا من حرير ، ولكنه لم يستطع الصمود أمام الحاحها .. وجاءت حنان .

وحمل الهواء اليهـــا صوت حنان . الطفلة المرحة السعيدة وأمها تلعب معها بالكرة على الرمال ، ثم تجرى خلفهـــا فتدركها والطفلة تقفز وضحكاتها تملأ الجو ...

لكم هفا قلبها الى هذا الدور من سنى الطفولة العذب لابنتها حنان ، لكنها لم تدركه ... لم تدركه لأن حنان ابنتها لم تكن كبقيـــة الاطفال ! كانت تاكل وتنمو وتزداد جمالا ويكتسى وجههـــا بحمرة العافية . ومع ذلك لا تتكلم ولا تتحرك ، ولا تناديها باعذب لفظ حلمت به في حياتها . لم تقل لهـــا ماما لأن قدرة التمييز كانت تنقصها ، ولم تلفظ كلمة بابا لأن ادراكها كان قاصرا تماما ... بل كان معدوما ! .

وأصبحت حنان الغصة التى يشرق بها حلقاهما ! .. أصبحت نكبة حياتهما من حيث أراداها فرحة وحدتهمـــا ... لم ينفع معهـــا طب أو دواء . وأجمع الاطباء انها ستعيش وتكبر ولكن عقلها سيظل متخلفا ! ..

ووضعت يديهـــا على عينيها تحجب الذكرى المرعبة وأحست نفسها تنسلخ من حاضرها ، وتمتمت بتوسل :

ـ مدحت . أريد طفلا آخر ... اريد طفلا يشعرنى بأمومتى ...

وسمعت صوته أقرب الى البكاء :

ـ كيف ! ؟ كيف يمكن أن تخطـــر ببالك هذه الرغبة القاسية ؟ .

وأجابته فى ضراعة :

ـ ان حنـــان لا تعرفنى ، وأنا أريد طفلا يعـرفنى يا مدحت . وينـــاديني ويتجاوب معى ...

وتحشرج صـــوته بدموع يحـــاول جهده أن يحتجزها :

ـ ان حنـــان محتاجة لـــكل حبنا ورعايتنا ... ان حنان عاجزة وأى طفل آخر سيسلبها حبنا وحناننا ...

ـ صاحت فى لهفة :

ـ لا تقل هذا . ستكون حنـــان دائما فى المكان الأول من نفوسنا ، ومهما كان طفلنا الثانى فلن يستطيع أن يحرمهـــا من حناننا .

ـ هذه محض تخيلات ... لقد لمست بنفسى كيف يحرم مثلها من الرعاية اذا وفد على الأسرة طفل جديد ...

وقالت فى عتاب :

ـ لسنا نحن يامدحت ممن يتصرفون هذا التصرف الجائر ..

ـ انت واهمة يارجاء . وكلامك محض تخيلات .. ولن أسمح لك بالخوض فى هذا الموضوع بعد الآن .

وجثت على ركبتيها وراحت تستعطفه بدموعها :

ـ أرجوك يامدحت ، أتوسل اليك ، لا تحرمنى من اللذة الوحيدة فى الحياة ... لا تحرمنى من الامومة ...

وصرخ فيها بيأس :

ـ ان كلامـك كخنجـــر يطعننى فى صدرى .. البست حنان ابنتك ؟! كيف تقولين اننى حرمتك لـــذة الامومة ؟! أتنكرين عليها بنوتك ؟ ! .

ـ انها ابنتي يامدحت ولكن امومتي معطلة بالنسبة لهـا ... ان شعور التجاوب بيني وبينها معدوم ! .. انها لا تعرفني !!

ـ وهل هذا ذنبهـا ؟ ! أما يكفيك مابها حتى تريدين حرمانها من عطفك لتغدقيه على طفل آخـر فيكبر معهـا احساسها بالاضطهاد من القدر ومنـك أيضا ؟!

ودفن رأسه بين يـديه مستندا على ركبتيه في يأس مر ، وخرج صـوته كالأنين :

ـ رجاء . اعقلي ، والا كانت نتيجة تصرفاتك وبالا علينا .

وقالت في لجاجة :

ـ ولنفرض أنها استمرت على هـذا الحال ... الن تفكر ...

ولم يدعها تتم بل صاح وقد تملكه غضب شديد :

ـ نعم لن افكر في طفل آخر قبـل أن أراها قادرة على خدمة نفسها وفي غنى عن كل انسان .

وفي صوت هامس قالت :

ـ هل هذا قرارك الأخير ؟

وأجابها بحزم :

ـ نعم . هذا قـراري الأخير ولن أتراجع عنه مهما حدث ..

وأحست بجمر نار يحرق صدرهـا وزفرت بحـرقة : ترى كيف اصبحت ياحنان ؟ وشدتهـا الذكرى وهي ترى الشهور تمر وحنان تزيد في فجيعتها ، نعم :

فجيعتها هي ، فان كان يأسه من عدم تقدمها للشفاء وحزنه على مصيرها يعد فجيعة ، فان ألم حرمانهـا من الامومة وعقارب الغيرة التي تلدغ أحشائها كلما سمعت طفلا ينادي على أمه .. هـذه الأحاسيس كانت تدنو بعقلها شيئا فشيئا نحو النهاية ! .

وبدأ عامها الثالث وهي طريحة على ظهرها حتى الحركة لا تستطيعها ، شيء واحد هو الذي تقـدمت فيه صـوت كالصراخ تفتح به فمها اذا تلكأوا في اطعامها ثم تدير نظرها فيما حولهـا وترفع يدها وتضعها في فمها وتحدث غرغرة .

ووصلت الأزمة برجاء الى منتهـاها ، فاختلت بمـدحت ذات مسـاء وكانت خلواتهما نادرة ، وسألته وهي تحاول أن تدخل على نبرات صوتها شيئا من الليونة والانكسار .

ـ علام عولت يامدحت ؟

ولم يجبها بل رفع عينيه عن الجريدة متسائلا بعينيه :

وأحست بشجاعتها تخونها تحت وقع نظراته . فتشـاغلت بوضع صحاف الطعام أمامه على المنضـدة الصغيرة . وخرج صوتها مرتجفا :

ـ ألم تصل الى حل ؟

وأجابها في دهشة :

ـ حل ؟ لم ؟

ـ لقد تقدمت الحال بحنان وأظنهـا أحسن كثيرا الآن .

وانتظرت أن يرد عليها ـ بأي كلام ، ولكنه تشبث بالصمت . فاردفت بسرعة وقد أحست بشـجاعتها على وشك أن تخونها :

ـ ألم يؤن الأوان بعد ؟

فأجابها ببرود:

ـ أوان ماذا ؟

وغاظها برودة وامدهـا ببعض القوة وارتفع صوتها قليلا وهي تقول :

اوان انجاب طفل ·

وبنفس البرود القاتل قال :

ـ كلا ·

واحست لبروده مخالب تنزع قلبها من بين ضلوعها فانفجرت فى يأس :

ـ اذن طلقنى ·

وكانما نزلت على نافوخه بقضيب من حديد ، فاتسعت عيناه وبرزت ونفرت عروق رأسه ، وجف حلقه ، وخرج من بين شفتيه شبه فحيح :

ـ أطلقك ؟!

ـ نعم لأحقق أمومتى المعطلة من زوج آخر ·

والجمت صراحتها لسانه فراح ينظر اليها غير مصدق واستدركت هى :

ـ مادمت تبخل على بهذه الرغبة التى تقتلنى ببطء فلن أعيش معك ·· ان حبك وحنانك كله قد تحولا الى ابنتك حنان وليس لى مكان فى نفسك ··لقد كرهتنى يامدحت ·· كرهتنى لدرجة أنك تضن علىّ ببعض السعادة التى تملكها أنت ولن تكلفك شيئا ! ·· قلت لك الف مرة ان سعادتى فى الامومة وقد حرمتنى منها · فلا أقل من أن أبحث عنها مع آخر ! ·

وكانما كلماتها هى القشة التى طفحت بكيل همومه فصرخ وقد انفجرت ينابيع حقده جميعا :

ـ أيتها المجردة من كل عاطفة ، ياجاحدة ، ياقاسية اليك عنى · اذهبى ·· تزوجى ·· انجبى ·· أما انا فسأعيش لابنتى · واسعدى أنت بحياتك فليس لك بعد الآن موضع فى بيتى ···

وسقطت يداها من فوق عينيها اللتان غاصتا فى البحر أمامها ، ولم تبك ·· لم تسقط دمعة واحدة من عينيها · كانت احشاؤها تبكى ···

نعم لقد تزوجت ولكن الله حرمها من الانجاب ·

واحست بحركة عجلات تمر بالقرب منها فوق الارض المرصوفة فالتفتت بطرف ذابل فاذا بعينيها تصطدمان بشابة جميلة يانعة ، ممتلئة الجسم ، فارعة الطول ، تجلس فوق كرسى ذى عجلات مستندة الرأس على وسادة مثبتة على ظهر الكرسى ، وعيناها لا تطرفان ! ويداها راقدتان فى حجرها فى استسلام ومن خلفها رجل طويل نحيف أسمر اللون ابيض الشعر فى لون الثلج يدفع الكرسى ببطء بينما تسبح عيناه فى الفضاء اللانهائى غير عابىء بما حوله من عجيج الحياة ! ···

والجم فاها ·· لم تصدق نظرها ·· اصابها ذهول ·· ولم تفق الا والعربة قد اختفت عن ناظريها ، وصاحت فى يأس :

ـ حنان ··· ابنتى ·

وسمعتها حنان هى الاخرى·· الجميلة الصغيرة ، والتفتت اليها وقذفتها بالكرة وهى تصيح فى نشوة ثم جرت رافعة يديها نحو الموج المنحسر تحاول أن تستوقفه فاسرعت اليها بالكرة وقد غشت عينيها الدموع ولكن الصغيرة حدقت فى وجهها المتقلص ثم جرت منها مذعورة وارتمت فى حضن أمها ···